محاضرة رقم: 04: عصر التنـــويـــر (الاستنـــارة) في أوربـــا

مفهوم التنوير:حركة عقلية علمية اجتماعية ظهرت في أوربا، ودعت إلى إعمال العقل في فهم الواقع، وتحرير العقول من سيطرة الكنيسة التي ظلت تهيمن على تفكير الناس طوال القرون الوسطى، و لم يظهر مصطلح التنوير إلاّ في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، مع أنّ 'الأب ديبوس' كان قد استخدمه لأول مرة عام 1733م، وكذلك فعل 'جون جاك روسو' عام 1750م، وعلى الرّغم من أنّ مدلوله كان موجودا من قبل، فمن المعلوم أنّ الظاهرة تسبق تسميتها.

يُعتبر الأديب والفيلسوف الفرنسي فولتير Voltaire صاحب كتاب "**القانون الطبيعي**"، والفيلسوف الألماني أوغست كانط Kante مؤلف كتاب "**الدين وحدود العقل**"، والإنجليزي 'ويليام جودن' صاحب كتاب "**العدالة السياسية**"، و'شارل داروين' مؤلف كتاب "**أصل الأنواع**"، وفرانسيس بيكون... وغيرهم؛ روّاد ومؤسسي عصر التنوير في أوربا. بالإضافة إلى الفيلسوف الفرنسي 'رينيه ديكارت'، الذي طَبَعت فلسفته شوارع فرنسا، وكان مهتما طوال حياته بدراسة العلوم والقيام بالتجارب العلمية.

لم تكن الحركة التنويرية تحمل السمات ذاتها في كامل أقطار أوربا؛ فإذا كان فلاسفة التنوير بفرنسا قد وجّهوا انتقادهم ضد الكنيسة، فإننا نجد روّاد التنوير في إنجلترا قد ركّزوا على نشر الفضائل الاجتماعية، مستعملين مصطلح أقرب من حيث المعنى إلى التنوير وهو **'الاستنارة'**.

كان انتشار البروتستانتية وفق مبدأ 'الإيمان الفردي' قد مهّد الطريق للأفكار التنويرية، فخاض فلاسفة التنوير حربا ضد الكهنوت من أجل تبليغ رسالتهم والوصول إلى الحقيقة، وكان بإمكانهم مجاراة رجال الدين والعيش في أمان دون خوف، لكنّهم فضلوا المواجهة والصمود، وانتصروا على التعصّب الديني والظلم والجهل، فأسّسوا مفاهيم وأفكارا جديدة في شتى المجالات، ولذلك تعدّ أفكار عصر التنوير استمرارا لأفكار عصر النهضة الأوربية.

شهد الميدان السياسي الولادة الحقيقية في هذا العصر بفضل أفكار وإبداعات الفلاسفة، أمثال 'توماس هوبز'، الذي دعا إلى الفصل بين الدين والعقل، واعتبر أنّ الدولة هي جهاز ضخم، كأنّها التنين الجبار الذي

يلتهم كل شيء، وينفي حرية الرأي، كما أسهم الفيلسوف 'جون لوك' في الدفاع عن الحريات الفردية، حيث رأى أنّ الفرد يجب عليه أن يتنازل عن جزء من حريته للدولة التي تسهر على حمايته وحماية ممتلكاته، وهو صاحب المذهب القائل بأنّ "الأفكار ليست فطرية نابعة من الغريزة، وإنما هي انعكاس لصدى الأحاسيس، وبأنّ الحكومة المدنية يجب أن تكون قائمة على رضا المحكومين" (كتابه:رسالة في الفهم البشري 1690م).

لقد أدّت هذه الأفكار والمفاهيم إلى ظهور جدال ونقاش حاد حول مفاهيم الدولة والسياسة والحكم؛ وتسرّبت أفكار 'جوك لوك' ومعاصره العالم "إسحاق نيوتن" إلى فرنسا، وتبلورت في شكل مجموعة من المذاهب العقلية، كما وجدت هذه الأطروحات والنظريات صدى كبيرا في أوربا لا سيما في فرنسا، وظهرت أفكار فولتير، روسو، ديدرو وكوندروسي، وخاصة مونتيسكيو (صاحب كتاب **روح القوانين Esprit des Lois** عام 1748م)، الذي وضع فيه فلسفة للتاريخ، وكان يرى أنّ "سرّ حرية الإنجليز يكمن في الفصل بين سلطات الحكم الثلاث: القضائية والتنفيذية والتشريعية".

ازدهرت في فرنسا الآداب والفلسفة والبحوث التاريخية والفنون والتمثيليات بين تراجيدية وهزلية، وتوّجت بظهور دائرة المعارف الكبرى في 34 مجلدا بين عامي: 1751و 1772م. ولم يقتصر تأثير هذه الحركة التنويرية على فرنسا؛ بل تعداها إلى سائر الأقطار الأوربية، بما حملته من هجوم على الأفكار البالية والخرافية والمعتقدات الدينية والاجتماعية السائدة آنذاك، وكان ذلك عن طريق اللغة الفرنسية التي حلّت محلّ اللغة اللاتينية باعتبارها لغة الثقافة الأوربية.

اعتمد عصر التنوير على العقل؛ فسُمّي أيضا "**عصر العقل**"، كما اعتمد على الطبيعة، وهو ما ساهم في ظهور المدرسة الرومانسية، وقد اهتمت هذه الحركة الفكرية في عمومها بتجديد المجتمع، ولم يعرف العالم قدر هؤلاء الفلاسفة التنويريين إلا بعد موتهم، حيث أصبحت أفكارهم مصدرا أساسيا للتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في أوربا، والتي أفرزت الثورة الفرنسية، والتي أحدثت نقلة نوعية في التاريخ الأوربي الحديث.

أما في الميدان الاقتصادي؛ فقد أنتجت هذه الأفكار الثورة الصناعية وأنظمة اقتصادية بارزة كالنظامين الرأسمالي والاشتراكي،لا سيما بعد اتجاه كتّاب هذا العصر إلى انتقاد المبادئ الاقتصادية القائمة على التدخّل الحكومي في كل شيء، والتي ورثتها فرنسا عن العصور السابقة. وقد أخذ العالم الاقتصادي الانجليزي الشهير

'آدم سميث' بهذه الأفكار الجديدة في انجلترا، وأسّس لمبدأ حرية التجارة (دعه يعمل دعه يمر)، والذي عاد بنفع كبير على الإنجليز في أوقات الشدّة والرخاء، والشأن نفسه بالنسبة لـــ 'كارل ماركس'.

ومع ذلك فقد نُعت كتّاب وفلاسفة هذا العصر بالإلحاد، فقد كان 'فولتير' و 'روسو' من ألمع المناهضين لرجال الدين (الإكليروس)، وكان فلاسفة 'عصر التنوير' يهدفون إلى تحقيق حرية الفرد في أوسع معانيها: حرية الفكر، حرية القول، حرية الكتابة والنشر، وحرية الفعل، والحرية المطلقة في نظرهم هي العلاج الناجع لكلّ المشاكل في شتى أنحاء العالم. هذه الأفكار الداعية إلى الحرية المطلقة، والتي بقدر مساهمتها في تحرّر الفرد الأوربي من قيود الكيسة والأنظمة الملكية الاستبدادية؛ فإنّها رسّخت لنزعة 'إلحادية' قائمة على العقلانية والمادية، ولا تولي عناية كبيرة للجانب الروحي والديني.

عمل دعاة 'الفكر التنويري' في العالم العربي والإسلامي (العَلمانيون) على محاكاة نظرائهم الأوربيين، ودعوا بدورهم إلى تقليد عصر التنوير الأوربي فكانت كتاباتهم تركّز على الهجوم على بعض أحكام الشريعة الإسلامية، وقد تناسى هؤلاء أنّ الدين الإسلامي لم يكن أبدا رافضا للعلم ولا محاربا للعقل (مثلما فعلت الكنيسة البابوية إبان العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث)،

خلاصة القول:

1- لم يبحث فلاسفة عصر التنوير في جوهر وطبيعة الإنسان ومصيره الأزلي؛ بل سعوا دوما إلى تغيير المجتمع من أجل تغيير سلوك الإنسان على أسس عقلانية ومادية.

2- اتّسم فكر التنوير في أوربا على العموم بعداء شديد للكنيسة ورفض مطلق للدّين، بحجّة منح الأولوية للعقل والعقلانية التي ترفض الغيبيات والخرافات والأساطير.

3- التنوير ليس دخيلا أبدًا على ثقافتنا الإسلامية وليس جديدا على الفكر الإسلام؛ بل هو يمثّل جوهر وأساس عقيدة الفرد المسلم، فالإسلام يدعو إلى الأخذ بأسباب العلم وإعمال العقل في التفكير، لكن دون التخلّي عن الجانب الروحاني، وبما يتناسب مع أحكام الشرع الحنيف.